مقابلة أدبية مع : محمود درويش

وجهت « الآداب » الى شاعر الارض المحتلة محمود درويش مجموعة من الاسئلة أجاب عليها بما يلي :

١ ــ في مقال لك شهير بعنوان « انقذونا من هذا الحب القاسي » ادنت محاولات الاطراء والثناء الكاسحة التي قوبل بها أدب المقاومة في اسرائيل ، فما كان أثر هذا النداء في النقد العربي وفي أدب المقاومة بالذات ؟

□ لم اتوقع لندائي مثل هذا الصدى . ولعل لهجتي لا تعبر عن شكوى اذا قلت لك ان ندائي يعاقب بالشهرة ، كنت احاول ، مخلصا ، حماية شعرنا من مظاهر الحب الحماسي ، فاذا بتعبيري عن محاولتي يقع اسيرا لهذا الحب مرة اخرى. اعني .. ان ذلك النداء الذي رجوت ، من خلاله ، تحريرنا من الدلال لم يحقق من اهدافه الا اعلان نيتي الطيبة التي ظنها زملائي مجرد لعبة ذكاء . وارجو الا يفسر حديثي الان عن ذلك الموضوع بانه رغبة جديدة مني في تكرار النداء . لا ... ساكون وقحا لو استقبلت كل مظاهر الحب بالرفض .وساكون ساذجا ايضا لو وقعت اسيرا في قبضة هذا الحب . واصارحك القول اني اتجنب ، باقصى ما اوتيت من حيلة ، ابداء ملاحظاتي وانطباعاتي حول الشعر الذي يكتب في بلادي . وفي حقيقة الامر ، لم يكن ندائي المذكور موجها الى النقاد العرب وحدهم . لقد كان موجها ايضا الى الذين يكتبون الشعر في بلادنا ، وربما كان ــ بالاضافة الى ذلك ــ نوعا من الحوار الداخلي مع نفسي . وماذا كانت النتيجة ؟ من الصعب ان نتوقع نتيجة لمقال . ولكن بعض زملائي اصيب بالدهشة ، وقال البعض : كيف ترفض هدية ثمينة بمثل هذه الفظاظة ؟ ولاحظت من ردود الفعل لدى الاوساط الادبية العربية التي أتيحت لي فرصة الاطلاع عليها ــ وهي قليلة ــ ان هناك أساسا قويا للافكار والمبررات التي قام عليها ندائي ، وان شيئا يشبه قدسية القضية كان يضع الماء في افواه الذين كانوا يوشكون على ابداء آرائهم بمعركة الحب الدائرة ، ولكنهم يخشون ان تكون اصواتهم نشازا .

هذا من ناحية ..

ولكن ، هل نستطيع القول ، من الناحية الاخرى ، ان ردود الفعل التي اتخذت جانب العداء كانت استجابة مباشرة وبريئة لندائي ؟ كلا . ان مجلة «شعر» مثلا لم تكن تنتظر دعوتي قبل اعلانها باكثر من سنة ، عندما قدمت أقسى هجاء لحركتنا الشعرية باصدارها عددا خاصا عن شعرنا تضمن اسوأ ما كتب في تاريخ الادب العربي من شعر . اني اعترف هنا ، وبصوت مسموع ، بان مجلة «شعر» كانت جارحة الذكاء . انها لم تكتب كلمة واحدة في طعن شعرنا ، وقد تظاهرت بانها تنسجم مع حركة الاهتمام العربية فاصدرت عددا خاصا عن هذا الشعر يخرج القاريء الواعي منه بموقف شديد السخرية .

ماذا اريد ان اقول ؟

اريد القول ان ندائي المذكور لم يغير مواقف ولم يخلق مواقف. ربما كان حافزا لبلورة مواقف . وانا لم اكن ساذجا الى الحد الذي يصور لي ان بوسع مقالي ان يغير شيئا ، ولكنني اردت التعبير عن هواجسي واعلان موقفي . ونلاحظ الان ان الجميع متفقون على ضرورة تخليص شعرنا من المداعبة ووضعه في مكانه الصحيح من حركة الشعر العربي المعاصرة . ومع ذلك ، فاننا نتحدث ولا نفعل . اي ان النقد ينقد النقد ولا ينقد الشعر .

ثم ..

دعني اعتقد ان الاجابة على السؤال المطروح تستدعي تناول بعض الافكار الجديدة ــ ولعلها جادة ــ حول الشعر العربي الذي يكتب في بلادي :

ثمة رأي يقول ان هذا الشعر لا يمكن اعتباره شعر مقاومة . انه شعر معارضة . وأنا لا اعتبر هذا التحديد اهانة ، وانما اعتبره اجتهادا ، ولكنه يعاني من هواية التلاعب بالالفاظ او الافكار . ان صاحب هذه المقولة ــ وهو كاتب جاد ــ يختار من مصطلح «ادب المقاومة» المعنى الواسع للكلمة بمعالجته ما يبدو له انه ادب مقاومة في شتى البلدان وفي شتى الازمنة ، ولكنه يتنازل عن هذا المعنى الواسع ويتشبث باضيق معاني المصطلح عندما يصل الى بلد ما في منطقة الشرق الاوسط ، فيصبح الموقع الجغرافي هو معيار تقويم المواقف ، لانه هو الذي حدد ، موضوعيا ، موقفا سياسيا تفصيليا لهذا الشاعر او ذاك ، فتصبح فدوى طوقان ــ على سبيل المثال ــ شاعرة مقاومة لانها لا تعترف بوجود اسرائيل . ولو عاش معين بسيسو ــ على سبيل المثال ايضا ــ في مدينة عكا لما كان شاعر مقاومة لانه لن يكرّس شعره للتصريح بانه لا يعترف بوجود اسرائيل . اما محمود درويش ــ على سبيل المثال للمرة الثالثة ــ فلو هاجر الى الكويت لكان شاعر مقاومة ، لان واقعه هناك لن يدفعه الى محاورة اليهود .

هل انا شاعر مقاومة ؟

لا ادري . ولا يهمني هذا السؤال كثيرا . ان ما يهمني ــ كشاعر ــ هو ممارسة مهمتي دون ان اعرف رتبتي . ولكنني افهم عن شعر المقاومة انه ملتحم بقضية دفاع عن وطن امام قوى تقهر هذا الوطن. وانا ادافع عن وطني ، ولعل كل ما اكتبه ــ في نهاية الامر ــ يتلخص في كشف نفسية الانسان الذي يدافع عن وطنه بمختلف الاشكال والازياء . وانا اقاوم من ياخذ حقي وارضي . والارض عندي ليست مجرد ارض ، والشجرة ليست شجرة ، والمساء ليس مساء . وانا لست شاعر طبيعة . انا شاعر وطن . ومعارضتي ليست معارضة جزء من كل . انها معارضة الضد . وانا احاور سجاني لاني اريد ان اتكلم ، واشعر بالملل !. واذا كنت لا اكره زوجة سجاني ، فان ذلك لا يعني اني انسجم مع سجاني .

هل انا شاعر مقاومة فقط ؟

ليس كل شعر مقاومة ــ بالمعنى الشائع للمصطلح ــ شعرا ثوريا ، لان المقاومة بمعناها الظاهري تعني الرفض . والموقف من عدو او ظاهرة لا يصلح دائما ــ والى مدى بعيد ــ مقياسا للثورية . هنا .. نحتاج الى تعميق مفهوم المقاومة ليشمل ما هو اعمق من الرفض الآني

ورد الفعل الميكانيكي . وهنا ـ من حقنا ان نبدي بعض التردد ازاء نماذج شعرية معينة خلقها رد الفعل المباشر غير الواعي . على هذا الاساس نطرح السؤال : هل شعرنا هو مجرد ردود فعل ساذجة ؟ ان هذا السؤال ليس بسيطا بالشكل الذي يتظاهر به . الاجابة عليه قد تساعدنا على التكهن بمستقبله : هل تكمن اهميته في كونه ردا ساخنا يفتر بانتهاء حركة الحدث الذي خلقه ، ام يحمل اهميته في ذاته .. في القيم التي خلقها ؟ وهل استطعنا ان نضفي على الحدث الذي نتعامل معه ابعادا مأساوية مثلا ؟ وهل استطعنا ان نمسك بلحظة شعرية لامعة من سنوات الظلم؟. لقد انصرفنا الى حديث الفن، ولكننا نتحدث عن ضرورة تعميق مفهوم المقاومة ليشمل اكثر من الصمود والانتقام والرفض ، ليشمل الثورية الحقيقية .. التسلح بالعلم والممارسة لتغيير الواقع تغييرا جذريا .. تغييرا ثوريا . او لنقل ـ لتكن المقاومة مقاومة ثورية تشمل المعنى القومي والمعنى الاجتماعي في جوهرها . ولقد انصرفنا الى حديث الفكر ، ونحن نتحدث عن الشعر (والغلطة هنا ذات دلالة) مهمة الشاعر تصبح مزدوجة . ان ثوريته يحددها نشاطه داخل حركة الفعل .. داخل الجماهير بواسطة الشعر ، هذا النشاط الذي يؤثر على نشاطه داخل الشعر نفسه . والثوري ـ اذا كان شاعرا موهوبا ـ لا يكون رجعيا داخل الشعر وثوريا خارجه . والشاعر ـ اذا كان ثوريا حقيقيا ـ لا يكون ثوريا داخل الشعر ورجعيا خارجه . وماذا نعني بالثورية داخل الشعر ؟ الموقف من التراث ، والتجديد الدائم للعلاقات القائمة في القصيدة وتغيير هذه العلاقات . لا اعني بالتغيير التدمير او الابادة ، اعني التطوير . ان المحافظة على ما هو حيوي في القديم هي المحافظة على المقدمات لمتابعة الحركة . والجديد ـ كما نعلم ـ لا ينفي القديم كله . اننا نصادف موقفين خطيرين من هذه المسألة : موقف العبادة للقديم ـ وهو موقف متحجر ورجعي ، وموقف الكفر المطلق بالقديم ـ وهو موقف فوضوي .

هل استطعنا الاجابة على السؤال : هل الشعر العربي الذي يكتب في اسرائيل هو شعر ثوري من هذه الزاوية ؟ صحيح ان بعض نماذجه وهي تقاوم الاضطهاد الاسرائيلي تجد في الماضي ـ كل الماضي سندا تاريخيا لها ، فتقع احيانا في اخطاء التغني بكل ما في الماضي، وعندها يبدو ان بعض نقاط ارتكازها غير ثورية ، ولكن الناقد مدعو الى تفسير هذا الميل لدى الشعوب المضطهدة التي تستنجد بتاريخها لمقاومة من يعتدي عليه . انه نوع من الدفاع . ولكن الاتجاه العام لهذا الشعر لا ينحو هذا المنحى .

وأرجو الا يفهم من كلامي اني اقدم دفاعا شاملا عن «المنجزات» الفنية التي حققتها حركة شعرنا . ما زلت اعتقد ان هذه الحركة لم تبلور بعد ولم تبلغ النضج الفني . وسيرتكب اصحابها اخطاء غبية لو اطمأنوا الى اذواقهم الفنية ، وكفوا عن السعي نحو تحسينها. ومع ذلك ، فاننا نحاول ان نكون ثوريين في الحياة وفي الشعر ..

٢ ـ هل تعتقد ان الشعر العربي الذي نشر بعد هزيمة حزيران استطاع ان يعبر تعبيرا كافيا عن آثار هذه الهزيمة في النفوس وأن يرهص بميلاد الانسان العربي الجديد ؟

☐ دعنا نتفق ، اولا ، على ان القول لا يساوي الفعل . على هذا الاساس دعنا نحرر انفسنا من رياضة المقارنة . ان طرح السؤال على هذا النحو ينطوي ، منذ البداية ، على اتهام الكلمة . استطاع حزيران ان يقنع الناس ، للوهلة الاولى ، بان الحقيقة الوحيدة الباقية في الشرق الاوسط هي حقيقة الدم المسفوك . كان الدم ـ ولعله لا يزال ـ هو اللغة الاقوى ، فأي ادب يملك القدرة على الكلام في حضرة الدم ؟!. ان اللحم البشري الذائب في رمال سيناء ، لمن يراه او يتخيله ، هو اللغة الوحيدة القادرة على التعبير عن مرارة المأساة .. أليس كذلك ؟ نحن مدعوون ، اذن ، لكي نعطي الادب حق الكلام الى انقاذه من حرج المقارنة .

اذن . انت تسألني عن الشعر العربي الذي نشر بعد هزيمة حزيران . كان يترتب علي الامتناع عن الاجابة لعدم اطلاعي المقنع على الكثير من هذا الشعر . سيبقى رأيي مجرد انطباعات تركتها النماذج القليلة التي اتيح لي الاطلاع عليها . وما دامت كذلك فهي قابلة للتغير امام نماذج اخرى تمنحني المزيد من المعرفة .

يبدو لي ان بوسعنا الحديث عما تمكن تسميته بفترة الصدمة الاولى . الشاعر العربي ، كأي مواطن ، اصيب بمفاجأة مذهلة ، ولذلك كان صوته يصرخ في كل الاتجاهات . كان الشعر لا يعرف لانه لا يعي شيئا ، وكان يشتم اول من يصادفه ، وقد صادف وجهه اولا. ومن هنا نرى ان هجاء النفس كان يسم الكثير من قصائد تلك الفترة: هجاء الكلمة ، هجاء التراث ، واللغة ، والامة ، والحاكم . وكانت حرارة العاطفة الجريحة والمهانة حتى الموت وشدة الانفعال تحرق السنة الشعراء ، فتضطرب اصواتهم بسبب اختلال التوازن والموقف. وباختصار ، كانت الفوضى تعم كل شيء . وأكاد اشك كثيرا في قدرة اكثرية قصائد تلك الفترة على البقاء .

ولو نظرنا الى الموضوع من النافذة السياسية استطعنا القول ان ما كتب في تلك الفترة من شعر ، او اكثره ، كان شعرا مهزوما . وكان ، دون ان يدري ، جزءا من السلاح المصوب الى صدر قضية التحرر العربي لانه شارك اعداءها حملة التشكيك في قيمها وتاريخها، وأشاع اليأس القاتل في صفوف ابنائها . وهذا ما يفسر اهتمام المراقبين الاسرائيليين للادب العربي بهذه النماذج وترجمتها السريعة الى اللغة العبرية في أوسع الصحف اليومية انتشارا ، وبعض هؤلاء المراقبين «الادبيين» من الجنرالات !.

من هنا ، نخلص الى التقدير بان شعر الفترة الاولى بدلا من ان يكون انقاذا للامل الذي تعرض للاغتيال ، كان شعر يأس . وبدلا من ان يكون شعر مقاومة .. مقاومة للهزيمة وأسبابها وقواها كان شعر هزيمة ، وبدلا من ان يكون شعر صمود واصرار على التمسك باسباب التحدي التي دفعت الامبريالية الى التحرك لضرب آفاق تطور حركة التحرر العربية كان شعر استسلام ، ولم يسهم في تفجير قوى المقاومة والطاقات القادرة على الصمود .

ولعل هذه المسألة تنطوي على اهمية بالغة فيما يتعلق بفهم الشاعر لدوره ومكانه . عندما فقد الشاعر الايمان بطاقات شعبه فقد الشعر . وبوسعنا ان نجد اضافة جديدة الى هذه المسألة في تغير الاتجاه العام للشعر في فترة لاحقة ، عندما اخذ الشعر الثوري والمقاوم يتبلور اعتمادا على الايمان بطاقات الشعب التي لا تهزم . اننا نشعر الان بالفرح لان بعض الشعراء العرب البارزين انعطفوا نحو الاتجاه الذي نعتقد انه الأصح . انهم ، باختصار ، وجدوا ينابيعهم .

وبماذا تتميز القصائد اللاحقة التي اتيحت لي فرص الاطلاع عليها ؟ بالوعي الثوري او الحدس الثوري . انها تحاسب مجتمعها وانظمة حكمها وتراثها محاسبة تقدمية لا محاسبة فوضوية او انتهازية. وفي الوقت نفسه تحاسب نفسها دون ان تنتحر . انها تنزل الى الشارع لتجد الجواب . وهي ليست بدون أبعاد . ليس حزيران آخر الدنيا . شهور قبله وشهور بعده . والنموذج الان ليس الانسان الغريب غير المتجانس مع الآخرين ، وليس المسحوق بلا تمرد ، او الملعون بالكسل . النموذج الان هو ذلك الذي يستأنف الموت برغبة دموية في الحياة .

وهل أرهصت بميلاد الانسان العربي الجديد ؟

هذا السؤال صعب ، لست مؤهلا للاجابة عليه . ولكن المهم انها

تستشف ولادة هذا الانسان . ويبدو لي ان حزيران (على الرغم من انه ليس بداية تاريخ جديد ، فالبداية ابتدأت قبل حزيران) يضيف برهانا على حتمية انتماء الشاعر النقي الى التقدم والمستقبل ، ويأخذ مواهب ثمينة في الشعر العربي الى هذا الميل . وحزيران ـ هذا العجيب ـ يزيح الغموض الذي اكتنف كثيرا من المفاهيم عن الحياة والفن . انه شهر لا حياد فيه ولا من قائل : أبعد هذه الكأس عني . وسنعرف الان ان الشعر هو رؤية ثورية للحاضر ورؤيا للمستقبل . ولماذا نكتب ؟ لاننا جديرون بانتمائنا الى الحياة ومحتاجون الى الاحساس الدائم بهذه الجدارة .

٣ ـ ماذا تقول عن مجموعتك الشعرية الاخيرة «العصافير تموت في الجليل» وهل تعتقد انها تثير بعض الاسئلة والتساؤلات عن تجربتك الشعرية ؟.

□ لعلك لا تعرف ان سوء التفاهم ـ الذي اريده ان يكون وديا ـ بين القراء في بلادي وبيني ، آخذ في التحول الى خلاف قد يأخذ شكل القطيعة . وذلك امر خطير يسبب لي احزانا حقيقية . الكثيرون من القراء قالوا لي انهم كفوا عن قراءتي . وعلى الصفحة الادبية لجريدة «الاتحاد» دارت مناقشة اسبوعية استغرقت اكثر من ثلاثة شهور كانت قصائدي الاخيرة محور الاتهام فيها . لم اقرأ من آلاف الكلمات التي كتبها القراء كلمة واحدة تدافع عني . لن اروي هنا كل الآراء الخطيرة والمهينة احيانا المطروحة في تلك المناقشة الهامة والحيوية ـ على الرغم من سطحيتها ـ انها تعكس حاجة القراء الى الاحساس بانهم مسؤولون عن شعرائهم ، وبان هؤلاء الشعراء خاضعون لمراقبتهم الصارمة . دعنا نعتبر الامر ـ في اخر المطاف ـ علامة عافية ودليلا على العروة الوثقى بين مبدع الكلمة وملقيها . ولكن خلاصة البحث تواجهك بأسئلة صارمة تهزك حتى النخاع .

هل انا شاعر رمزي ؟ لا اعتقد . ان قصائدي الاخيرة تزيد اعتمادها على الرمز او تستخدم الرمز ، بمعنى ان الرمز يخضع للقصيدة وينصهر فيها . وليست القصيدة هي التي تخضع للرمز وتذوب فيه . وكنت اشرت كثيرا الى ان الرمز يخدم واقعيتي ويغنيها، ومن هنا فانا لست شاعرا رمزيا بالمعنى التاريخي لمدرسة الرمزية . وكما ان الشاعر الثوري يزاوج بين وعيه الثوري والغناء الرومانتيكي فانه قادر ايضا على استخدام الرمز دون ان يفقد جوهره الثوري . ان الرمز في الشعر ـ كما نعرف ـ يضيف ابعادا اخرى للقصيدة او يمنح اجنحتها مزيدا من الريش ، ولعل الرمز هو من اهم ميزات الشعر العربي الحديث ومن اكبر القيم الفنية التي حققها . ثم ان الاسطورة ـ في جوهر الامر ـ تلعب دور الرمز في القصيدة الحديثة . من هنا، اعتقد ان حملة القراء عليّ منشأها سوء الفهم ، اذ انطلقت اغلبيتهم من التسليم المطلق باني غيرت انتمائي وانتقلت الى الواقعية الى الرمزية .

وهل انا شاعر غامض ؟

ان الرمز هو الذي يخلق مثل هذا الانطباع الاولي ، فالقصيدة الحديثة لا تستسلم للقارىء من اول لقاء . كان القاموس قادرا ـ الى حد بعيد ـ على فك اسرار وأزرار القصيدة القديمة ، اما القصيدة الحديثة فهي اكثر تعقيدا وتركيبا وتشكيلا نتيجة تعقد الحياة نفسها. الحياة المعاصرة لا تسمح لنا بأخذ اي مظهر من مظاهرها بكل بساطة وسذاجة . والتناقضات صارت اكثر انفجارا وتداخلا . وان ما يعوزنا في هذا العصر لعله اليقين . لقد كتب الصديق «ابن خلدون» في «الاتحاد» في معرض التعليق على المناقشة : «تشتد الحاجة الى اساليب فنية جديدة ، الف مرة ، اذا اصيبت الحقيقة بما يشبه الانقلاب .. بحيث تغيرت صورتها بدون ان تغير ماهيتها الجوهرية».

ولكن ، هل يكون الغموض هو احد هذه الاساليب الفنية الجديدة ؟ كلا . انه ينتج عنها . وهنا ، يجب ان نميز بين شكلين : الغموض الذي يشبه السحابة الرقيقة الناتجة عن علاقة الشمس بالارض، والغموض الناتج عن وداع الشمس للارض ، وهو ما تتميز به مدرسة شعرية عربية حديثة تحترف الغموض احترافا .

وهل انا شاعر متشائم ؟

اني شديد الاحساس بانسانيتي . وانا اقرأ العالم وأراه . بوسع العالم ان يكون اجمل ، او بوسعنا ان نجعل العالم اجمل . كل ما نصادفه امامنا .. كل حجر ، كل بناية ، كل مصنع، كل مدينة ، كل نشيد ، وكل آلة كما نراها الان ذات تاريخ دموي . لقد قطعت الانسانية طريقا طويلا من العذاب لتحقق ابسط نجاح ، ولكن ملايين من الناس ما زالوا جياعا وملايين ما زالوا عبيدا . وان المهندس الفرنسي الذي قضى اربعين عاما من حياته يبني واحدة من اعظم كاتدرائيات العالم في بطرسبرغ لم تنفذ وصيته ، لم تسمح السلطة القيصرية بدفنه في الكاتدرائية التي بناها لانه كاثوليكي وهي ارثوذكسية !.

نعرف الان ان للعمال السوفييت العاملين في البناء اولوية الحصول على الثقة . هل تغير العالم ؟. نعم . ولكننا لا نطمئن الى هذا الجواب لان الظلام والجوع والعبودية وكل الاشكال المنافية لجوهر الانسانية ما زالت تسيطر على اجزاء واسعة من العالم . العدل ما زال ناقصا ، والحرية لا تزال ناقصة لان بيتنا المشترك ـ الكرة الارضية ـ ليست حرة كلها . لقد عرفنا الخلاص او طريق الخلاص، وذلك مصدر تفاؤل تاريخي ، وكل خطوة على هذا الطريق هي بمثابة برهان جديد على شرعية هذا التفاؤل . من هنا ـ من وجهة النظر الجوهرية ـ انا متفائل .

ولكن تفاؤلي ليس غبيا . انا لا اقرأ العالم بفرح . فان مسيرة تفاؤلنا التاريخي ليست آمنة بدون حدود . ان اعظم ما حققته الطاقة البشرية من تقدم تكنولوجي لا يكرس كله لخدمة الانسان ـ وبوسعه ان يحيل الكرة الارضية الى جنة . انه يهدد الانسان ويهرس اعصابه ، لان دولة كبرى مثل اميركا تملك حظ الثروة الطبيعية والعلمية ولكن ايديها حمقاء وهي بلا روح وبلا انسانية ، وهذه هي آفتها وآفتنا معها . وهيروشيما ليست مجرد ذكرى . عندما اقبل حبيبتي تطلع لي من الحائط صورة هيروشيما . هل اقول ان ما يفسد لذتي مع حبيبتي هو الحمق الاميركي ؟ وهل استطيع الهروب من هذه العلاقة المتناقضة . لا، اني اعترف بالقلق والحزن والخوف على مصير العالم، وحين التقي بالعامل السوفييتي اشعر بالأمان . وجهان لعالمنا ، من الوجه المضيء استمد تفاؤلي التاريخي ، ومن الوجه الاسود يأتيني القلق من الحرب والاصرار على الرفض . وهكذا فتفاؤلي ليس ورديا وليس بمنجى من المحاذير .

ومن اين يبدأ العالم ؟

انه يبدأ من بيتي . وكانت علاقتي الاولى بالعالم عدائية ، لاني انتمي الى بيت يحوي اهلا . لا بيت الان ولا اهل . شعب كامل يعيش بلا وطن في هذا العالم الذي يجعل القمر وطنا آخر . كيف احاور الحقيقة .. وما هي الحقيقة ؟ العالم يطلب من الضحية البرهنة على انها ليست القاتل . والقاتل الحقيقي يتظاهر بالبكاء . والقضاة ؟ من هم القضاة المخولون باصدار الحكم ؟. دم على كل الطرقات وفي كل الحدائق .. وعلى مرايا العالم ، والحقيقة تأخذ شكل المذبحة . والضحية مطالبة باثبات براءتها ، ولا قاض الا الموت. هل استطاع وطني ان يملك الا حريته في ان يموت كما يشاء ؟ الموت هو البطاقة التي يقدم بها وطني نفسه الى العالم . فاتخذ لك موقفا من الموت الاختياري . ان مجموعة « العصافير تموت في الجليل غارقة

في التعامل مع الموت الذي ليس موتا في جوهره ، فهل يعني ذلك انى متشائم ؟

وهل انا شاعر ذاتي ؟

يجب ان نقيم فاصلا بين معنيين لهذا المفهوم . على المستوى الفلسفي وعلى المستوى الفني ، اظن ان ما يميز الشعر عن سائر اشكال الوعي الاجتماعي هو ان الذات تشكل محوره . ولكنها ليست معزولة عن الاخرين مهما تظاهرت بالاستقلال النسبي . وهي ـ بهذا الاستقلال ـ تتفرد بصفات خاصة هي التي تحدد الطابع الفني المستقل لكل شاعر . وأنا احب ان اعتقد ان السمة المميزة لشعري تتمثل بالخصوصية ، لاني على الرغم من كل عيوبي شاعر صادق . ومفهومي للشعر يقنعني بان الصدق هو جوهر الشعر . ولكن ، من اين تشكلت ذاتي ؟ الجواب الواضح على هذا السؤال يحل ما يبدو انه تناقض .

واني متشرب حتى النخاع بالاحساس بالحصار . والحصار ليس فكرة ذاتية اخترعتها وليس وهما يأمرني . انه واقع يعيشه شعبي، وعندما اكشف نفسيتي المحاصرة اكشف ، في الوقت ذاته ، نفسية شعبي .

وبعد .. اني اتكلم على هامش الشعر ، على هامش تجربتي في «العصافير تموت في الجليل» ، ولا اتكلم عن الشعر نفسه .

٤ ـ هل تشرح لنا خلفيه الحوار الذي يجري بينكم وبين الادباء اليهود في اسرائيل ، والذي كان لك فيه نشاط واضح ؟

□ قد لا ارتكب خطأ فادحا اذا تصورت ان هذا الحوار سيتحول الى ظاهرة . وقد لا ارتكب خطأ اخر اذا لاحظت وافعين مختلفين ـ لا متناقضين ـ لتحريك هذا الحوار . هل تم نتيجة رغبة متبادلة في ممارسة رياضة فكرية ؟ كلا . ان الكاتب العربي في اسرائيل حريص على اجراء الحوار لانه حريص على طرح قضيته وانقاذها من ركام الزيف الذي اهالته عليها الدعاية الصهيونية ، وحريص على انقاذ الحقيقة من التعذيب اليومي . وهو يريد ان يهز الكاتب العبري «المحايد» ويضعه في الاختبار . ويريد الا يكون المنافشة همسا . انه يحاور ، من خلال الكتاب ، اوساطا واسعة من الرأي العام .

ولماذا يريد الكاتب العبري الحوار ؟ نحن نتحدث عن الفترة التي اعقبت حرب حزيران . ومع ذلك ، يجب ان نتابع اشكال الشخصية العربية ومكانتها في الادب العبري .

كانت هذه الشخصية متأخرة ولا تشكل موضع اهتمام ، ثم اصبحت عند بعض الادباء الذين جاءوا الى فلسطين يحملون بعض الافكار الاشتراكية الديموقراطية تشكل مسألة اخلاقية ، فنلاحظ عندهم ملامح من العطف الانساني على مصيرها ، ولكنه لا يصل الى حد تأنيب الضمير لان تحقيق القيم الصهيونية هو المسألة الاولى ، والصدام ليس بين حقين ، بل تحقيق الحق الاوحد مع الحد الادنى من ايذاء الغير . ويمكن التعايش مع العربي الفلسطيني في اطار اذابته ، لان بقاءه يحمل صفة من طبيعة الشرق (القهوة السوداء، الكوفية والعقال، المرأة المحجبة ، الدبكة) وكان هذا العربي يعمل في مزارع اليهود . ونلاحظ في بعض الروايات العبرية ـ مع تطور الصراع فيما بعد ـ موقفا باهتا يقول : لو احسنا معاملته لكان الوضع افضل . وعلى كل حال ، فالمسألة تبقى في حدود النظرة الاخلاقية . ثم تأتي فترة حرب السويس بما سبقها وما اعقبها ، فيأخذ العربي شكل العدو الذي يعكر المزاج . ولكنه لم يتحول بعد الى هم حقيقي لان الانتصار عليه مضمون دائما . ثم .. نصل الى حرب حزيران .. ونلاحظ بهجة النصر والاحساس بالطمأنينة الابدية وراء السلاح القوي ، فتعم الفطرسة القومية والفرح الحيواني بقتل العرب والاحساس بتوقف التاريخ . كان حزيران ، بالنسبة للرأي العام الاسرائيلي ، هو خاتمة الحروب، والسلام بعده على قاب قوسين او ادنى . وجلس الناس مع وزير دفاعهم ينتظرون المكالمة التليفونية العاجلة من القاهرة لتعلن : استسلام العرب وحلول السلام . وفوجيء الناس ، بعد طويل انتظار ، بان الخط التليفوني معطل . وبدلا منه خطوط دفاعية قوية على امتداد قناة السويس . وصارت الأطر السوداء في الصحف تزاحم الخرافات وتخرج لسانها لتصريحات الجنرالات ووزير الدفاع . ونسطر الرأي العام الاسرائيلي الان علامات بارزة من التساؤل والقلق . مرت مرحله الطمأنينة كالبرق ، وامتدت الايام الستة الى مئات الايام . وماذا بعد ؟ هذا هو السؤال .. واين الامن ؟ واين السلام ؟ وهذا الشعب العربي الجريح يقف على قدميه ويحاربنا ويقتلنا .. والادهى من ذلك انه يسقط الفانتوم على الرغم من انها تحمل نجمة الملك داود !

لقد وصف احد النقاد اليهود شخصية العربي في الادب العربي بعد حزيران بانها تطورت الى كابوس .. وناقش المواقف الاخلاقية السابقة الموحية بان كل شيء يتوقف علينا ولو عاملناه بشكل احسن لكان الوضع افضل ، قائلا انها مواقف ساذجة . لا . «المسألة ليست بمثل هذه السهولة . ان الصراع قدر ولا مفر» . وكتب لي روائي بارز ترجمت احدى قصصه : «انك ، يا محمود درويش ، قد تخدع قراءك وشعبك اذا حاولت الاستفادة من القلق الذي نعانيه ، وترتكب خطأ اذا حاولت برصدك مظاهر القلق والتشاؤم في ادبنا . البرهنة على تفكك مجتمعنا . ولكني اريد ان اقول لك : حذار من دفعنا الى اليأس ، لان اليأس يجعلنا اكثر عنادا وخطرا ! » . ان ما يعنيه هذا الكاتب الموهوب هو النشاط الذي قمت به في الآونة الاخيرة لرصد اتجاهين متعاكسين في الادب والفكر الاسرائيلي : الاول ، علامات التساؤل والقلق واعادة النظر على اختلاف منطلقاتها ، فبعضها مثالي وبعضها حريص على طهارة الصهيونية وبعضها حائر وبعضها واقعي . ولكنها تتفق على ابداء التشكك ومحاولة البحث عن مخرج اخر ، وتتفق على ان طريق السياسة الرسمية الحاكمة لا تؤدي الى اي سلام والى اي امن ، ولا تحقق الا الحرب الدائمة .

والانجاه الاخر ، القائل ان الصهيونية واسرائيل ليستا مسؤولتين عن سفك الدم ، وان العرب هم المسؤولون . وان هذا الوضع المأساوي قدر لا مفر منه .

هذه هي الخلفية التي قام عليها الحوار بين الكتاب العرب واليهود . ومن الصعب تلخيص موقف موحد للجانب العبري من الحوار ، فهو ليس متجانسا الا بالقلق ومراجعة الحساب (حساب النفس هو الذي يميز الان مجموعة ملحوظة من الادباء والمفكرين اليهود في اسرائيل) . ولكن الجميع يطرح هذا السؤال : ما هو البديل الذي تعطيني اياه حركة التحرر العربية ؟. واعتقد ان المفكر العربي مدعو الى مرافبه التغير الجاري لدى هذه المجموعة والى قراءة حساب النفس هذا وتطويره نحو الخلاصة الصحيحة. ليس المجتمع الاسرائيلي مجتمعا متجانسا ، والقبول بفكرة ان كل الاسرائيليين وحدة سياسية واجتماعية هو ما تريده الصهيونية وقيادة اسرائل . من المفيد ان يصغي الرأي العام العربي الى نواقيس التحذير التي تدق في اسرائيل مهما كان صوتها خافتا . وتزداد الحاجة الى ذلك ازاء ارتفاع موجة العسكرية والارهاب الفكري في المجتمع الاسرائيلي . فلا ينبغي ان تبقى الاصوات الصحية معزولة . من الضروري انتشعر بسند اخلاقي وأدبي وربما سياسي لها من الجانب العربي ، لتعميق التناقض والبرهنة للناس في اسرائيل حقيقة الصهيونية وأخطارها عليهم هم انفسهم .

وأحب ان اشير الى ان حوارنا القاسي لم ينته بنتائج عملية

ذات اثر ، ولكن صاحب القضية العادلة لا يخشى المناقشة . نحن لا نحاول ابتزاز موقف انساني من احد ، ولا ندفع ثمن الحوار التنازل عن حقوقنا ومبادئنا . وأظن ان هذا الحوار ، كما قلت في البداية ، سيتطور الى ظاهرة يتوقف حجمها على شعور الاسرائيلي المتزايد بانه لم يربح الحرب .

٥ ــ عن جائزة اللوتس ؟

□ لا اعرف اذا كنت استحق جائزة «اللوتس» فعلا . ولكنني ارحب بها بامتنان وفرح . اني ارى فيها عطفا ادبيا على قضيتي وتشجيعا على الاستمرار في طريقي . ان ما يبهجني في الجائزة هو انها بفتح نافذة صغيرة في الحصار المضروب علينا . ولعل صوتي وصوت زملائي قادر الان على الوصول الى مزيد من الاذان الاسيوية ــ الافريقية . وان ما يخيفني في الجائزة هو المسؤولية الجديدة التي تلقيها علي .

٦ ــ عن المشاريع المنتظرة ؟

□ لست شاعرا محترفا . والشعر لا يحتل من وقتي الا ساعات معدودة . وأنا كثير الصمت . يحدث الا اكتب قصيدة واحدة طيلة عام كامل . ان للشعر عندي مواسم ، وهكذا بعد صمت طويل ارانى اكتب بغزارة ثم اتوقف . لا اكتب الا اذا عشت تجربة جديدة . ونفسي كثيرا ما تصاب بالركود وبما يشبه العقم . ومن هنا ، لا اخطط لمشاريع . الان مثلا ، لا اكتب شيئا .. ولا اعرف ماذا سأكتب، ولكنني اهجس بكتابة قصيدة عن عبدالرحيم محمدو .. الشاعر والمقاتل . وقد بدأت عدة اعمال .. وتوقفت فجأة . ولا أعرف متى سأنهيها .

٧ ــ عن نشر كتبي في بيروت

□ لست متحمسا للطريقة التي تنشر فيها كتبي في بيروت . اني اسمع عن صدور كتب لم اصدرها (*). لماذا ؟ لم امت بعد . عندما اموت افعلوا بي ما تشاؤون . ولكن الان دعوني اعمل على مهلي . دعوني اكتب في الظل ، واتركوا لي ان افرر متى اخرج الى الضوء. وأرجو ان يكون لي الحق في مطالبة النقاد بألا يحاسبوني الا على ما اصدره انا .ولذلك، من الضروري ان اقول اني لم اصدر منذ مجموعة «اخر الليل» (الصادرة في كانون اول ١٩٦٧) الا مجموعة واحدة هي «العصافير تموت في الجليل» . ومع ذلك ، اريد ان اشكر الناشرين الذين يهتمون بأعمالي ، ولكنه شكر مشوب بالعتاب الودي !.

(*) تعليق « الآداب » : أصبح معروفا ان في بيروت دارا جديدة للنشر تستولي على كل ما يصدر في الارض المحتلة فتعيد نشر ما كان مجموعا في كتب ، وتجمع على هواها ما كان منشورا في الصحف دون اذن من المؤلفين . والالم الذي يعبر عنه محمود درويش هنا يشبه الالم الذي يعبر عنه سميح القاسم اذ يقول في رسالة خاصة:« انني لا اخفي عنك امتعاضي من محاولة بعض دور النشر الطارئة وغير الجدية الانجار بشيء نريده فوق التجارة والاسواق التجارية . ولعلك توافقني على ان اسراع بعض الناشرين الى جمع ثلاث او اربع قصائد لشاعر ما ونشرها في « ديوان » هو عملية تجارية بحتة ليست من النشاط الادبي في كثير او قليل » .

وجوه في الظل

١ ــ (صورة)

منذ هوى رأسي بين يدي
أمسى كرة ..
يتنازعها صبيان الحي
أصبح ذاك الوجه الشاحب ..
لوحة اعلان
يتمرّى فيها الزمن الضائع ..
تحفرها بصمات حزيران

٢ ــ (تشكّل)

حدّثني ..
عن درب تنحر فيه العنقاء
عن قافلة تتقاذفها ريح الصحراء
حدّثني ..
عن صوت في مقبرة الاسلاف يغيب
عن وجه بين وجوه الفرسان غريب
حدّثني .. حدّثني ..
ثمّ توارى في ظلّ الدرع المثقوب
يوم تلمست خطاه ..
كنت أفتش عن وجهي ..
بين الاقنعة الشوهاء
لكنّي عدت غريبا
ادركني الموت
فالدرب كفن
وصدى الصوت
سيف مكسور علّق في جيد وثن

٣ ــ (اعتراف)

لا أملك أن أتكوّر كالقنفذ ..
أو أصمت كالليل
لا املك ان أفلت من ذاتي ..
أن أصرخ ..
أن أعدو كالسيل
من خبّأ في جرحي السكين
من البسني فروة ذئب ..
من ذوّب في كأسي ..
علقم آلاف سنين ؟؟
آه لو أملك أن أعدو ...
عريان الوجه ..
أمرّغ خطوي بالطين
لخنقت بأعماقي ــ من زمن ــ
زيف القرن العشرين

الموصل (العراق) **معد الجبوري**